



قد يكون من غير الملائم أن أترك الأحوال في مصر من استفتاء واستقطاب، وأنقل الخطاب إلى ساحة أخرى ربما مل الناس من الحديث فيها عن سقوط بشار الأسد الذي صدق عليه قول كاتب أمريكي، «إن الأخبار الدائمة حول موتي مبالغ فيها!».

ولكن التمهل واجب على أي حال فربما لن ترك الحديث عن مصر كثيرا، بل ربما اقتربنا منه أكثر، ولكن الحالة السورية جاءت من مصدرين:

الأول، أن النصیر الأول لبشار الأسد في العالم وهو روسيا صدر عنها ما يشير إلى أن موسكو باتت تعلم أن عصر بشار الأسد قد انتهى موضوعيا حتى ولو كان التاريخ لا يزال يضع قصة الخروج أو السقوط.

والثاني، أن الأحوال على الأرض تتغير بسرعة، وموقع الأسد تسقط واحدا بعد آخر، والمعركة صار بعضها في قلب دمشق. وعلى الرغم من كل الشكوى فإن الأسلحة التي بيد الثوار تختلف جذرياً عما كان الأمر منذ وقت قصير، وفيما يبدو أن هناك ما هو أكثر في الطريق إذا نجح الثوار في إقناع قوى مهمة أن الأسلحة لن تسقط في النهاية في أياد لا تعرف الكثير عن فكرة الحرية والديمقراطية..

والكثير من القيم النبيلة التي يتحدث عنها الثوار. هنا تحديدا تلتقي القصة السورية مع القصة المصرية، وقصص أخرى لا بد من حضورها.

ومنذ فترة ليست بعيدة طرحت في هذا المكان أن سوريا ربما تكون آخر قصص الربيع العربي، ليس فقط لأنها طرحت إشكاليات عظمى تتعلق بالدولة العربية وحالة الأقليات فيها، بل وأيضا إلى أي حد يكون المدى ديمقراطياً بعدها، وأن المسألة ليست مجرد إحلال لنمط من الديكتatorية، واحد منها كان عرس السياسة في الخمسينات والستينات من القرن الماضي تحت راية «القومية العربية»، والآخر بات عرس «الربيع العربي» تحت راية «الإسلام السياسي» في العقد الثاني من القرن الحالي. كلاهما ليس له في الفكرة الديمقراطية الكثير، وعلى الرغم من بعض التطعيمات الجارية منذ فترة لكي تشمل مساحة مشتركة بين كليهما وأفكار الحرية والليبرالية، إلا أن هذه لم تكن وحدها أبدا فقد كان اللقاء مع الفاشية أكثر سهولة. النتيجة النهائية لكل ذلك أن لحظة خروج بشار الأسد، أو سقوطه، سوف يكون لها توابع كثيرة في الجوار المباشر، والأرجح أنها سوف تبدأ لعبة من الكراسى الموسيقية تستغرق معنا زمانا ليس بالقليل سوف تكون فيها الموسيقى صاحبة،

والبحث عن الكراسي عنيفا.

الأرجح أن التغيير في سوريا سوف يفرض فترة من المراجعة يكون السؤال الأساسي فيها عما إذا كان مد الربيع قد وصل إلى أقصاه أو أن قوة الدفع فيه لا تزال قوية فتنتقل إلى بلدان أخرى طال فيها شقاء الجمود السياسي بينما تتسع فيها أعداد الشباب والطبقة الوسطى. سوف يكون موضع النظر أيضا، أمام الشباب والطبقة الوسطى، ما جرى في بلدان الربيع، وسوف تكون التجربة المصرية، وإلى حد ما الأخرى التونسية، موضع بحث وتدقيق. فالثابت أن الثمن كان باهظا جدا في التجربتين الليبية واليمنية وال叙利亚ية أيا كانت الآفاق التي سوف تصل إليها، ولكن كثيرا من التفكير سوف يجري، ويكون مطروحا طريق آخر غير ذلك الممتلئ بالحيرة والعجز عن الاتفاق، والتردي اللامسؤول للحالة الاجتماعية، والاحتضان القبيح للتردي الاقتصادي. سوف يكون لدينا على الأقل فترة من التفكير، ولا أقول الهدوء، وبينما ينقسم العالم العربي بين دول الربيع والدول التي نأت عنه أو نجت منه، فإن دولا أخرى سوف تقف في منتصف الأرجوحة لا تعرف متى تنزلق، ومتى تسقط، ومتى تنجو بفعل عون مقبل أو حظ قائم. الأردن دائماً أفضل الأمثلة، كان ذلك في أيام القومية العربية التي سرعان ما عادت أصولها إلى الثورة العربية الكبرى، أما فيما يحدث هذه الأيام ف تكون المملكة «هاشمية» الأصل والمستقبل. السياسة متقلبة كما نرى وربما كانت المشابهات التاريخية كلها كما يجب خارج السياق، ولكن للأسف فإنها أهم ما لدى الباحث والمحلل لعلنا نكون جزءا من دورات محكمة، أو قوانين غير مرئية تنظم دون أن ندرى حالة النشوء والارتفاع.

ولو كنت مكان الجماعة السورية وقيادتها المناضلة من أجل الخلاص من آخر حفريات عصر زائف لا كان قوميا ولا كان عربيا ولا كان سوريا بل وأظنه أيضا لم يكن علوا وإنما واحدة من تلك العصابات التاريخية التي تبقى من طغمة كانت لها يوماً أحالم كبيرة؛ لو كنت مكان هؤلاء لأرسلت جماعة تنظر وتدرس ما جرى من أخطاء خاصة خلال المرحلة الانتقالية حتى لا يجري تكرار ما جرى. وفيها كلها سوف يكتشفون عددا من إشكاليات المرحلة الانتقالية: أولها، كيف يبقى الثوار موحدين أو على الأقل بينهم آلية سلمية للتعامل مع مهام المرحلة الانتقالية. المسألة سوف تكون أصعب في الحالة السورية، فهي الحالة المصرية والتونسية بقيت الدولة على حالها، بيروقراطيتها وجهازها القضائي والأمني والعسكري، ربما ضعف كثيراً أو قليلاً ولكنه ظل موجوداً ويمكن البناء عليه. ولكن في دمشق سوف يكون ما هو موجود معرضاً لتلف كبير، وربما لا يكون ذلك عيباً كله، فالأفضل أحياناً أن تبدأ من جديد بدلاً من إصلاح نظام قديم.

وثانية، المسألة الدستورية وهي كما نرى في القاهرة قسمت شعباً لم يعرف انقسامات كثيرة من قبل، ولكن القسمة غالبت، وباتت مصر فسلطانين مدني وديني، وسرعان ما ظهر أن هذا وذاك لا يمثل أفكارا وإنما إطاراً جغرافياً بين القاهرة والشمال من ناحية والجنوب من ناحية أخرى، وأصولاً اقتصادية اجتماعية بين الطبقة الوسطى على جانب والطبقات والشرائح الفقيرة على جانب آخر.

وثالثاً، ماذَا نَفَعَ مَعَ النَّظَامِ الْقَدِيمِ، وَهُوَ سُؤَالٌ كَانَ لَهُ أَصْوَلُهُ عِنْدَمَا تَمَتِ الإِطَاحَةُ بِنَظَامِ صَدَامِ حَسَنِي، وَهُوَ حَفْرِيَّةُ أُخْرَى مِنْ حَفَرِيَّاتِ الْقَوْمِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ.

ولكن الحفريات في العالم العربي لها أصول إن لم تكن دينية فهي عرقية، ولا يقوم استبداد وطغيان على محض القوة الغاشمة، ولكنه وقد استمر لفترة طويلة يثبت له موقع ومصالح لا بد من قرار التعامل معها أو سحقها، وفي بغداد قرروا الثانية فكان شبه تقسيم العراق، وفي مصر قرروا الأولى، فلم يمض عامان على الثورة حتى كان «الفلول» مرة أخرى في الميدان!

القائمة بعد ذلك، أو ربما قبل ذلك، طويلة، فقضايا الأمن والاقتصاد وإدارة العلاقات الإقليمية والدولية لا تنتظر أحداً بل تضغط بشدة على القيادة الجديدة ولا تأخذ ببعضاً من وقتها فقط، بل الأرجح أنها سوف تخضعها لاختبارات عده، فلا شيء

يزعج أصحاب مصالح أكثر من أن يكون أمامهم مجهول يطرح أسئلة لا يستطيع أحد الإجابة عليها.

المصدر: الشرق الأوسط

المصادر: